



الاستراتيجية العسكرية

اللواء الركن : حسن البدرى

بدءا بالملاحظة العابرة ، المشفوعة بالبحث المتأنى ثم التجربة العريضة ،
فالنظرية الصحيحة ، المتبوعة بالتطوير الواعى ، تتبلور استراتيجية
الدولة الصاعدة ، وتتعدد مضامينها وأبعادها .

ثم تروح هذه الاستراتيجية بعد أن ينضج عودها ويتأكد وجودها
تواكب مسيرة الدولة في ركب الحضارة الانسانية ، صعودا مع نموها
وازدهارها ، ثم هبوطا مع انكماشها وانهارها ، الى أن تغلفها نظرية
جديدة ، تقوم هي الاخرى على الملاحظة ثم التجربة ، ولا تنفك تتطور
حتى تثمر استراتيجية جديدة ، أكثر مواءمة لمتطلبات العصر ، وسرعان
ما ينتشر ذكرها بأول انتصار تحققه ، حتى يكون (لكل زمان دولة ورجال)

● دور النشوء والارتقاء :

وعادة ماتستغرق الدورة الكاملة لنشوء استراتيجية الدولة ثم
ارتقاءها عدة أجيال أو بضعة قرون ، فكهذا كان الحال مع الاستراتيجية
الفرعونية في بداية عصر الامبراطورية القديمة عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ،
ثم الاستراتيجية الفارسية فالمقدونية فالرومانية البيزنطية التي خلفتها
الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام وتمكنت فيما لم يتجاوز نصف
القرن أن تقوض صروح امبراطوريتين من أعشى وأعظم امبراطوريات
التاريخ ، وأن تقيم على أشلائهما دولة لم يسبق قيام مثلها في العالمين من
حيث الاتساع والسؤدد ، في هذه الفترة بالغه القصير ، ثم تذود عن
حياضها وتمون كياناتها على امتداد سبعة قرون .

في صدر الاسلام

وبقدر ما كانت الفتوحات العربية الكبرى في صدر الاسلام فريدة في نوعها كانت بعيدة التأثير في الحضارة الانسانية ، اذ غيرت فيما بين عام ٨ - ٦٠ هـ ٦٣٠ - ٦٨٠٠ ميلادية خريطة العالم المعروف وقتئذ ، فلم تبق منها على شيء قديم ، واستبدلت بالجهل والجور والانحطاط الانساني علما وعدلا وسموا بشريا ، ثم رسمت اسلوبا كريما للحياة على الارض الممتدة من الصين شرقا الى مراكش غربا .

وتجدر ملاحظة أن استراتيجية صدر الاسلام قد انفردت عما سبقها من استراتيجيات في أنها اكتملت في طفرة واحدة لم تتجاوز مدتها بضعة سنين ، تسنمت بعدها الذروة بين النظريات الحربية السابقة لها والسائدة معها ، ثم ظلت توفر المنهل الذي لا ينضب معينه ، ليستقي منه فلاسفة الحرب قوانين القتال ، ويقتبسوا فنون المارك من أكثر المصادر أصالة ونقاء .

● بين بدر وكاظمة :

وعلى قدر ما استغرقت دورات النشوء والارتقاء السابقة عليها من زمن طويل انصهرت خلاله الاستراتيجية الفرعونية او البيزنطية حتى اكتسبت النقاء والاصالة ، كانت طفرة الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام وجيزة وشاملة ، اذ تم فيما بين اول نصر للمسلمين داخل الجزيرة العربية - معركة بدر - عام ٢ هـ ٦٢٤ ميلادية - ولاول نصر لهم خارجها - معركة كاظمة على الحدود الكويتية العراقية الحالية عام ١٠ هـ - ٦٣٢ ميلادية ، تم الارتكاز على أرسخ القواعد المتفوقة في فن الحرب ، انالت المسلمين نصرا تلو نصر ، من تتابع سريع وانجاز رائع الى أن اتم القائد المظفر المفيرة بن شعبة ، فتح بلاد فارس سنة ٦٦٩ ميلادية ، ثم وصل القائد الملهم عقبة بن نافع الى شاطئ المحيط الاطلسي عند المغرب الاقصى ٦٢ هـ سنة ٦٨٢ ميلادية حيث قال كلمته المشهورة . (والله لو علمت أن بعدك أرضا لخضتكم اليها غازيا في سبيل الله) .

وهكذا تسيدت الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام ميادين القتال ولما يمض نصف قرن على ظهور مرجع الامبراطور والقائد

البيزنطي موريس عام ٥٨٠ ميلادية ، الذي عالج فيه أصول الاستراتيجية وفنون الحرب طبقا للتجربة البيزنطية المريضة ، التي سقلتها حروب الاستنزاف المتتالية مع فارس ، حتى استقرت في صورتها المتطورة التي كانت القول الفصل لذلك الزمان والمكان ، واقتنع بها الكافة حتى اصطدمت بالاستراتيجية العربية الصاعدة ، فاهتزت دعائمها وشيكاً ، ثم وطأتها سنايك خيل العرب وهي تطوي الفيافي والوهاد شرقاً وشمالاً وغرباً ، لتعلا الدنيا عدلاً ونوراً بعد أن ملأتها الوثنية ظلاماً وظلاماً .

ونخرج مما سبق بأن استراتيجية صدر الاسلام ، بمجرد أن تجاوزت حدود الجزيرة العربية - دخلت الامتحان الذي لم تصادف فيه فراغاً حضارياً ولا تخلفاً علمياً ، بل واجهت منذ اللحظة الاولى استراتيجيات فارس وبيزنطة الراسخة الاركان ذات التجربة المريضة في الصراع الطويل بين القسطنطينية والمدائن ، الذي استغرق عدة قرون حتى بلورها موريس آخر الامر في كتابه الشهير عن قوانين الحرب وقواعد القتال وضمنه اشكال المناورة المختلفة وتكتيكات المركبة من تقدم وهجوم ودفاع ، كما عالج فيه تنظيم الجيوش وتشكيلها في وحدات ميدانية تضم ٤٠٠ مقاتل اسمها التاجما - أي الكثيبة - وتشكيلات ميدانية يتراوح حجمها بين ٦٠٠٠ - ٨٠٠٠ مقاتل اسمها الميروس - أي الفرقة -

ويظهر مما سبق ان الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام لم تختل بأرض قفر أو مجتمع متخلف وهي تطوي الارض بجيوشها الزاحفة من نصر الى نصر في مسارح الحروب المعروفة وقتند ، وفي كل اتجاه . كما أنها لم تقهر أعداءها - وهم كثرة - بفضل طفرة حضارية كما فعلت القوى الاستعمارية الكبرى عبر التاريخ وما زالت تفعل ، ولا هي ارتكنت الى تفوق كمي كما ارتكنت جحافل الهون أو جموع التتار ، وانما كان العكس هو الصحيح ، اذ وقفت أمام جيوش العرب جيوش فارس وبيزنطة اللتان كانتا وقتها في قمة الحضارة ، وتتفوقان على جيوش العرب كما وكيفما بما لاتصح معه المقارنة .

ورغم ذلك فقد قهرت استراتيجية العرب في صدر الاسلام استراتيجية موريس ورستم ، وانتزعت من جيوش هرقل وكسرى النصر المبين .

فإذا لم يكن الفضل في كل ذلك يعود الى التفوق العضاري ولا
الكمي في عدد الجنود أو الكيفي في نوع سلاحهم وعتادهم ، فإلى أي شيء
يعود إذن خلاف العقيدة والحافز والاسلوب والمنهج ؟

● للقتال سبعة أسباب :

لقد أجاز الاسلام الحنيف القتال لسبعة أسباب هي : الدفاع عن
العقيدة وعن الوطن وعن النفس وعن المـرض وعن المال وعن
المستضعفين في الارض وضد الدعاة ، وفي نحو ذلك قال سيد المرسين
وخاتم النبيين ٠٠ (من قتل دون نفسه فهو شهيد ، ومن قتل دون مرضه
فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد) .

والاسلام لا يبدأ أحدا بمدوان ، وفي ذلك يقول جل وعلا :
(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تمتدوا ان الله لا يحب
المعتدين) سورة البقرة ١٩٠

وتحتل فكرة السلام المقام الاسمي بين غايات الاسلام ومقاصده ،
فيصرح القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الثمرة المرجوة من اتباع
تعاليم الدين الحنيف هي الاهتداء الى طريق السلام والنور مصداقا
للآية الكريمة (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من
اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم
الى صراط مستقيم) المائدة ١٥ - ١٦

والسلام في مبادئ الاستراتيجية العربية أصل من أصول العقيدة ،
وعنصر من عناصر التربية الدينية القويمة ، وهدف يملأ ضمير المسلم
بقيم المجتمع النبيلة ، لبناء الامة ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : (يا أيها
الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم
عدو مبين) البقرة ٢٠٨

وينظر الاسلام الى الانسان نظرة التكریم والاحترام ، ويضع
من القواعد والاحكام ما يصون له كرامته ويحفظ حقوقه ، وكرامة
الانسان حق نوه عنه سبحانه وتعالى في قوله : (ولقد كرمنا بني آدم
وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن
خلقنا تفضيلا) الامراء ٧٠

وطريق الدعوة إلى الإسلام يقوم على الاقناع العقلي المدعم بالأدلة ، وإيقاظ المشاعر النبيلة وتحريكها عن طريق الموعظة الحسنة والمناقشة الموضوعية ، كما يفهم من قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) التحل ١٢٥ .

وليس في القرآن أية واحدة تشير إلى أن القتال وسيلة مشروعة لحمل الناس على اعتناق الإسلام ، وإنما تشير آيات القتال إلى أن الحرب قد شرعت للأسباب النبيلة السبعة آنفة الذكر .

والإسلام حين شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار واذلال الضعفاء ، وابتغاه طريقاً إلى الرشاد والسلام ، وإقامة الحياة على موازين العدل والمساواة ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى . . (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين أن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور .) الحج ٣٩ - ٤١ .

● حكمة القتال :

فالاذن بالقتال موافق لما تقضى به سنة التدافع بين الناس حفظاً للعدالة ودرءاً للطغيان ، وتمكيناً لأرباب العقائد وأصحاب العبادات أن يعبدوا الله ، ولا يتخذوا الحرب وسيلة للخراب والفساد . أو اذلال الضعفاء واشباع الشهوات ونيل المطامع الدنيئة .

ثم يقول سبحانه وتعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جراء الكافرين .

فان انتهوا فان الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين (البقرة : ١٩٠ - ١٩٣)
فهذه الآيات البينات تأمر المسلمين ان يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ، وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا ، وتنهاهم عن الاعتداء ، ثم تخلص الى بيان الغاية التي تضع الحرب عندها أوزارها وهي الا تكون فتنة في الدين ، وان يكون الدين خالصا لله ، ليحصل الناس على حريتهم بلا اضطهاد ولا الزام ولا تعذيب ، فاذا ما تحققت هذه الغاية وأطمأنت اليها النفوس ، وجب إيقاف القتال *

● شرعية القتال :

وينطبق على أسباب الحرب في الاسلام تعريف الحرب المشروعة التي اصطلح فقهاء القانون الدولي العام اليوم على شرعيتها في حالتين :
١ - أن تكون دفعا لاعتداء واقع ، وهو ما يعرف بالدفاع عن النفس *
٢ - أن تكون حماية لحق ثابت ، وهو ما يعرف بالدفاع عن الحقوق *

أما الحرب غير المشروعة في نظر الاسلام فهي التي تكون غايتها الفتح والسيطرة والتسلط ، مثل الحروب التي تسعى الى الاستيلاء على الارض التي تنتج الغذاء ، أو التي تسعى الى الاستيلاء على الارض التي تنتج الخامات رغبة في المنافسة التجارية بين الدول والاحتكار الدميم *

● الجهاد أسمى المراتب :

وتتلور الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام في عقيدة الجهاد في سبيل الله تنفيذا لأوامره جل وعلا (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج ٧٨ *

وفي قوله سبحانه وتعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وهذا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بمهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) التوبة : ١١١

وعن أبي داود باسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم) أخرجه النسائي ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من اغبرت قدماه للجهاد في سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار) أخرجه الطبري في الاوسط .

ولقد سبقت حكمته جل شأنه أن تكون أمة محمد أمة مجاهدة لا ترضى بالذل ولا تستكين الى هوان ، لذلك أوجب الاسلام على المسلمين الجهاد في سبيل اعلام كلمة الدين ، ونصرة الحق ، والدفاع عن العقيدة والوطن والنفس والمال والمرض ، وضد الدعاة .

وثواب الجهاد عظيم ، يقول عنه سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) الصف ١٠ - ١٢

وتتميز عقيدة الجهاد في سبيل الله بأنها عسكرية وتربوية فهي لاكتفي بالمحتوى المادي العسكري كما هو حال كل العقائد العسكرية الاخرى ، بل تشمل أيضا محتوى تربويا روحيا على أعظم درجة من النبل والسمو ، ذلك لأن الجهاد في الاسلام ثلاثة أنواع :

- ١ - جهاد النفس .
- ٢ - جهاد الشيطان .
- ٣ - جهاد العدو الظاهر .

❶ جوهر استراتيجية صدر الاسلام :

ان الكيان العسكري للامة يقوم على قاعدة مادية وروحية عريضة ، دعائمها الايمان الراسخ والعقيدة القوية ، والمقاتل الشجاع ، والاهداف النبيلة ، وكلها من اخص خصائص الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام .

وازاء هذا الوضوح والشمول لاستراتيجية صدر الاسلام يصبح السؤال الملح هو : كيف غاب عن علماء عصرنا الحديث تلك الحقائق التي يطرحها التاريخ الانساني عن انصاع عهوده ضياء وسناء ، رغم عوامل الاغراء العلمي الكثيرة الجديدة بجذب اهتمامات الباحثين لسبر اغوار ، وكشف أسرار ؟

فالملاحظ ان اغلب فلاسفة الحرب وعلماء التاريخ العسكري قد بعدوا بأقلامهم عن الغوص في أحداث هذا العهد الجسام ، فالكاتب العسكري الراحل السير بازيل ليدل هارت لم يشر في كتابه عن الاستراتيجية ولو بسطر واحد عن صدر الاسلام ، رغم اطنابه في الحديث عن كافة تفاصيل الاستراتيجية في العصور السحيقة والوسيطة والمعاصرة .

اما القلة التي تناولت هذا العهد بالبحث فيعييب منهجهم ايجاز مغل وابتسار مذموم ، ومن أبرزهم الماريشال برنادلو مونتيجمري ، الذي ذكر في كتابه عن تاريخ الحروب (أن تمزق الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي نقل مركز قوتها شرقا الى بيزنطة التي خاضت في القرن السابع صراعا داميا مع العرب من أجل البقاء) .

(وعندما وصلت جيوش العرب الى جبال طوروس ووهاد الاناضول الجنوبية كادت امبراطورية هرقل أن تلتفت أنفاسها لولا تحول العرب نحو الغرب ، واندفاعهم السريع على امتداد ساحل افريقيا الشمالي حتى دخلوا الاندلس عام ٧١٣ ميلادية ، واقتربوا من مشارف باريس بعد ذلك بسبع سنوات حيث خاض عبد الرحمن الغافقي معركة بلاط الشهداء ضد شارل مارتل) .

● البداية كانت في بدر :

لقد كانت بداية هذه الامجاد لحظة أن كلف الله عباده المسلمين بحمل دعوته الى العالمين بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن ، في قوله تبارك وتعالى : (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) سورة آل عمران ١٠٤ .

فكان أن خرج محمد عليه افضل الصلاة والسلام من المدينة على رأس ٣٠٥ من أوائل المسلمين ، يتعاقب منهم الرجلان والثلاثة على البعير الواحد ، ولا يملكون سوى جوادين اثنين ، بينما جيش المشركين يبلغ ٩٥٠ رجلا ، بينهم مائة فارس وسبعمائة بعير ، ورغم أن المقارنة العددية تظهر المهمة مستحيلة التنفيذ من النظرة الاولى ، إذ بلغ تفوق المشركين على المسلمين ٣ - ١ ، وتفوقهم في الفرسان ٥٠ - ١ فان النصر كان لمحمد وصحبه ، وهو ما يفرض على خبراء التاريخ العسكري وهواته ضرورة البحث عن أسبابه ومقوماته .

فعندما نزل الرسول أدنى بدر مساء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وعلم أن قريشا قد سبقته الى بدر قال لأصحابه : (هذه مكة قد أقت اليكم أفلاذ أكبادها) .

واستشار النبي أصحابه في اختيار أرض المعركة ، فقال الحباب ابن المنذر (انطلق بنا الى أدنى بئر الى القوم فاني عالم بها وبأبارها ، ثم نبني عليه حوضا ، ونقذف فيه الأنية ، فنشرب ونقاتل ، وتغور ماسواها من الأبار) .

فاستحسن النبي رأيه ، ورتب صفوف المسلمين أمام مورد الماء ، وحمل الرجال في الصف الاول الرماح القصيرة والسيوف ، أما الصف الثاني فقد حمل الرماح الطويلة ، بينما تسلحت الصفوف التالية بالسهام والنبال .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول من قاتل بهذا الاسلوب المتكرر من العرب ، فحقق لجيشه أمن السيطرة من مركز قيادة

واحد ، كما حقق العمق في تشكيل قتال المسلمين ، واستغل نقاط الضعف في أسلوب المشركين في الكر والفر ، اذ حطم هجماتهم على بنيان جيشه المرصوص ، وبعد أن تراخت سواعدهم ورواحلهم ، وسرى فيهم الوهن والخور ، تقدمت صفوف المسلمين للاجهاز عليهم ، فسقط من المشركين سبعون قتيلًا ، وأسر المسلمون مثلهم .

بدأت المعركة بالمبارزة التي طلبها عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ، فبرز لهم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث ، وقتلوا المشركين الثلاثة .

وأمر الرسول جيشه ألا يحمل على المشركين إلا بأمره ، وحتى يتجنب خطر التفاف قريش على أجنابه أمر القوم . . (ان اكتنفكم العدو فانضحوه عنكم بالنبل) .

وبعد أن تحطمت هجمات قريش على صخرة صمود صفوف المسلمين ، أخذ النبي حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريش وقال : (شأهت الوجوه) ثم نفخهم بها وأمر أصحابه أن يشدوا عليهم ، فكان نصر المسلمين الاول ، الذي ارتبطت عوامله بعمق الايمان ، وصدق الاقبال على الجهاد ، وبذل قصارى الجهد وغاية الطاقة فيه ، ذلك لاقتناع الكافة أن المقاتل المؤمن صائر الى احدى الحسنيين - النصر الموزر ، أو جنة الخلد - .

● في مواجهة هرقل ويزدجرد :

ثم لم يمر قرن واحد على بدر حتى كان المسلمون قد اكملوا المسيرة ، ووصلوا الى بحر الارال شمالا ، ومنابع النيل جنوبا ، وحدود الصين شرقا ، وخليج بسكاي غربا .

وطوال هذا القرن ظل العرب يحققون الانتصارات المذهلة بجيشهم الذي كان أبدا أقل عددا وعدة من جيوش الاعداء ، الا أنهم اعتمدوا على الاستخدام الذكي لفنون القتال خفيف الحركة ، والهجوم الفائق المرونة في ميادين القتال المفتوحة ، تطبيقا للأية الكريمة : (يا أيها

الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفوا زحفا فلا تولوهم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير (الانفال ١٥ - ١٦)

هذا بالاضافة الى الصمود والثبات والصبر في وجه العدو تطبيقا للآية الكريمة (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) (الانفال ٤٤ - ٤٥)

بهذه التعاليم الربانية حطم خالد بن الوليد وأصحابه جيش هرقل البالغ عدده ٥٠ ألف مقاتل في الواقعة على ضفاف اليرموك ، وأجبر امبرطور بيزنطة على الفرار بجلده وهو يصيح (سلام عليك يا سوريا ، سلام لالقاء بعده) .

وبها ايضا مزق سعد بن أبي وقاص قائد العرب في العراق جيوش رستم في القادسية خلال ليلة الهدير عام ١٥ هـ مارس ٦٣٧ ، وعندما أحل الفجر بنوره تحولت المعركة الى سحق ، واخترق العرب جيش الفرس فعثروا على رستم فوق سريرته وقتلوه ، وسرعان ماتبعثر الجيش الفارسي وانهار .

ثم مزق العرب جيوش يزدجرد في معركة المدائن عام ١٥ هـ (أبريل ٦٣٧) فدالت بذلك دولة الاكاسرة في اقل من خمس سنين .

لقد اعتمد نصر العرب المؤزر من ضمن ما اعتمد عليه على شجاعة المسلمين الاوائل المنقطعة النظير ، التي وصفها عدوهم القائد البيزنطي ثقفور فوقاس فقال (كانوا يحطمون أقوى الهجمات عليهم ، وبمجرد أن يلمسوا من عدوهم استرخاء أو وهنا ينقلبون الى الهجوم ، ويشنون عليه هجمة صادقة ، ثم لا يثنيهم عن النصر شيء في الوجود) .

● ركائز استراتيجية صدر الاسلام :

لقد تحقق للعرب النصر الخاطف بفضل خفة حركة فرسانهم ، وقدرتهم الفائقة على الالتفاف على اجناب العدو وتطويقه ، ثم الوصول

الى مؤخرته وعمقه ، حيث يخلون باتزانة الاستراتيجي في مسرح الحرب ،
ويوقعون في صفوفه الارتباك والشلل التام .

ثم اعتمدت جيوش العرب على الروح المعنوية العالية ، التابعة من
عقيدة الاسلام وتعاليمه السامية ، بالاضافة الى قدرتهم غير المحدودة على
تحمل شظف العيش ومشاق الحياة ، والاستغناء عن بهرج الدنيا
ومفاتها .

بفضل ماسبق ذكره وصلت فتوحات صدر الاسلام الى مدى لم تبلغه
غيرها من الفتوحات ، واستقبلت جيوشهم في كل مكان كمحررين
للعشوب المغلوبة على امرها .

وسرعان ما اعتنق الكافة دين الاسلام طواعية ، ومن اقتناع
وعقيدة ، ثم ظلوا يدينون به حتى وقتنا الحالي فيما عدا الاندلس .

ويقول جون باجوت جلوب في كتابه عن الفتوحات العربية الكبرى
في صدر الاسلام : ان العرب ابرزوا أنفسهم منذ الرسالة المحمدية على
صعيد عالمي بفضل تفوقهم العلمي وقوتهم العسكرية ، ولهذا أصبح تفهم
شؤونهم ضرورة لفهم حضارتهم التي ازدهرت منذ سارت الامبراطورية
الرومانية الى زوال .

وكان أبناء الجزيرة العربية هم وحدهم الذين أنجزوا هذه
الفتوحات العظيمة ، وكانوا كلهم من أبناء البادية الرحل ، أما الشعوب
التي فتحوا بلادها فكانت في الاغلب بلادا غير عربية ، كما كان معظمها
وريث حضارات تليدة ، ورغم ذلك فقد ظل العرب يحتلون مركز
الصدارة في تلك الامبراطورية العظيمة حتى ١٩٥ هـ سنة ٨١٢ ميلادية
عندما شرع الاعاجم في التدخل في شؤون الامبراطورية .

وانه لمن دواعي الاسف ان ظلت أوروبا قرونا طويلة تنظر الى
الفتوحات الاسلامية كنوع من الكوارث الرهيبة ، ولم يكن ثمة مؤرخ
عربي واحد يود ان يذكره الناس بها ، ولهذا كتبت الوف المراجع عن
تاريخ الامبراطورية الرومانية والبيزنطية والفارسية بينما لم تتجاوز
الكتب التي اخرجتها مطبعة الغرب عن الفتوحات العربية في صدر
الاسلام اصابع اليد الواحدة ، وحتى هذا العدد القليل لم يسلم من الخطأ
والانحياز ، ولم يدرك ما أحدثته الرسالة المحمدية من تبديل في المجتمع

الاستراتيجية

العسكرية

العربي وفي العالم اجمع ، وما أنجزته من أعمال عظام في كافة مجالات الدين والدنيا .

و لا ريب أن هذه الرسالة النبيلة قد أثرت بعمق في انتشار الاسلام وطبيعته بمزيج من الدين والسياسة ، فلم يمان قط من ذلك التنافس البغيض الذي قام بين الابطال والبابوات فخلق حالة من الاضطراب والفوضى ، عانت منها أوروبا في العصور الوسطى .

هذا وقد قدر للاسلام أن يبدأ انتشاره نحو الشرق بالفتوحات الكبرى في جبهة فارس ، التي استهلها خالد بن الوليد بالحشد حول الحفير في عام ١٠ هـ مارس ٦٣٢ ، ثم التقدم منها لخوض معركة الاسلام الاولى خارج الجزيرة العربية في كاظمة على الحدود الكويتية العراقية الحالية ، وبعد أن دمر قوات العدو النظامية ، زحف على الحيرة عام ١١ هـ (٦٣٣) ثم الانبار عام ١١ هـ (٦٣٣) فاستولى عليهما رغم التحصينات المنيعة التي كانت تلف المدينتين من كل جانب .

ثم قرر أبو بكر أن ينقل اتجاه المجهود الرئيسي الى جبهة الروم ، وعياً بأربعة الوية عقد قيادة كل منها الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، وعمر بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان .

وأصدر أبو بكر توجيهاته الى عمرو بن العاص أن يتجه بلوائه الى ايله (العقبة) ليعبر منها الى جنوب فلسطين باتجاه غزة ، أما لواء يزيد بن أبي سفيان فاتجه نحو شاطيء البحر الميت ، على حين اتجه شرحبيل بن حسنة نحو دمشق وبصرى ، وظل لواء أبو عبيدة بمشاية الاحتياطي الاستراتيجي للمسرح .

وراحت الوية المسلمين تتوغل في فلسطين وسورية ، وتشتبك مع الروم في معارك حاسمة ، وعندما اقتربت ساعة الاجهاز على العدو كتب أبو بكر الى خالد أن يتحول من العراق الى الشام ، فسلم القيادة الى المشنى بن حارثة ، وغادر عين التمر في مطلع عام ١٢ هـ ٦٣٤ محاذيا لوادي السرحان ، ثم قام بحركة التفاف كبرى حول جناح ثيودوروس قائد جيش الروم ، قطع فيها نحو ٣٠٠ كيلو متر في صحراء الحمد التي يتعدم فيها الماء ، حتى وصل الى تدمير وفاجأ العدو فأذهله .

وتحدث الفيلد مارشال أروين روميل عن هذه المناورة الرائعة فقال عنها : (لقد كانت حركات خالد في صحراء الحمد ملهمني في مناوراتي الواسعة في صحراء ليبيا ومصر ضد الجيش الثامن البريطاني فيما بين ١٣٢١ هـ و ١٣٢٣ هـ - ١٩٤٣ - ميلادية .

وتحول خالد نحو دمشق حيث اشتبك مع العدو في مرج راهط ١٢ هـ (أبريل ٦٣٤) ثم اتجه جنوبا حتى اتصل بباقي ألوية المسلمين في درعا ١٢ هـ (مايو ٦٣٤)

ولم تكن المهمة سهلة أمام ألوية المسلمين في سوريا وفلسطين ، فقد كان عليها أن تقاتل الفيالق الرومانية ذات الشهرة الاسطورية والمثل الاعلى في الانضباط العسكري .

● التنظيم والتسليح :

كان السيف والمزراق سلاح جندي المشاة البيزنطي ، بالإضافة الى الخوذة والدرع والزرذ ، كما كان القوس والنبل سلاح الفرسان الخفيفة التي تستطيع اطلاق نبالها في كل اتجاه بينما هي تركض بغيولها .

أما كتائب الفرسان الثقيلة فكان سلاحها الرمح الطويل ، وانقسم جيش بيزنطة الى كتائب شكلت وحداته الميدانية ، وضم كل لواء ثلاثة منها ، كما تألفت الفرقة من ثلاثة ألوية أيضا .

ولكل فصيل من ١٦ جندي عربية تحمل الفئوس والمجارف للجنود ، ومطحنة للقمح ، وغير ذلك من أدوات الحرب ومعدات الحصار ، كما كانت تسير خلف الجيش وحدة طبية تضم جراحين وأطباء وحاملة نقالات .

كان الجيش البيزنطي يتدرب على القتال بدقة وانتظام ، كما توفر لضباطه وقادته مراجع عسكرية في الكثير من فنون الحرب وأساليب القتال .

وأمام هذا الجيش النظامي وقفت ألوية العرب بعدد لا يبلغ النصف وسلاح لاتصح مقارنته ، ورغم ذلك لم يخسر العرب معركة واحدة ولا كسب الروم موقعة ، وكان الفضل الاول والاخير يعود الى عقيدة الاسلام السامية ، ومعنويات المسلمين العالية ، وتطلعهم الى الشهادة ، وقتالهم بحمية تفوق ما كان لدى العدو من تفوق في العدد والعتاد .

وكانت ألوية المسلمين - وهي الاقل حجما وأضعف سلاحا - امرع في الحركة بدرجة فائقة ، ولهذا كانت استراتيجيتهم العسكرية تعتمد على الهجوم العنيف ، والتقدم المباغت ، والالتفاف الخاطف لقطع خطوط المواصلات وشل واربك طرق التموين والاعاشة المعادية .

ولم يكن بوسع جيش بيزنطة الثقيل البطيء الحركة أن يجاري سرعة العرب الخاطفة في الارض الفسيحة المفتوحة ، التي لايعترضها مانع .

● معركة اليرموك الحاسمة :

وفي معركة اليرموك أبدى قادة صدر الاسلام من ضروب الحنكة والدراية بأصول الاستراتيجية الرفيعة مالم يبداه قائد سابق منذ عهد الاسكندر المقدوني ، ولا لاحق حتى عهد نابليون الكورسيكي . وأبدع خالد وعمر و شرحبيل ويزيد في تخطيط وتنفيذ استراتيجيات الاقتراب غير المباشر ، وأسلوب العمل من خطوط خارجية ، ومناورة الاندفاع نحو العدو بألوية منفصلة من اتجاهات عديدة ، ثم تركيز الهجوم عليه بألوية متصلة في حشد كثيف .

لقد حقق قادة صدر الاسلام الخاصتين الاساسيتين في رجل الحرب :

١ - نظموا عملية الحرب بحيث استفلوا كل المزايا التي تضمن لهم التفوق على الخصم .

٢ - كما نظموا قيادتهم بحيث تستغل كل قدرات آلة الحرب وأدواتها .

● مبادئ الحرب السبعة :

ذلك لأنهم أدركوا جميعا حتمية أن يزوجوا بجنودهم الى وطيس المعركة بالاسلوب الذي ينيلهم النصر ، والطريقة التي تحقق مبادئ الحرب السبعة التي لاغنى عنها للفوز وهي المفاجأة والحشد والتعاون بين الجميع والسيطرة والبساطة والسرعة والمبادأة .

ثم واصل قادة صدر الاسلام التفكير بصفاء في كل المشاكل التي اعترضت طريقهم ، ووجدوا لكل معضلة حلا في فسحة من الوقت قبل أن تواجهها جيوشهم .

كان الجيش الذي عبأ هرقل في مستهل عام ١٤ هـ ٦٣٦ ، أضخم جيش يحتشد في سوريا حتى ذلك الوقت ، وتركزت استراتيجيته الروم في الاحتفاظ بالخط الدفاعي الممتد من درعا الى بحيرة طبرية بمحاذاة نهر اليرموك .

وفي العاشر من اغسطس ٦٣٦ ميلادية ١٤ هـ احتل العرب الجسر القائم على وادي الرقاد وراء جيش الروم ، وهو الجسر الذي تتجمع عنده كافة محاور شبكة مواصلات الروم الرئيسية ، وسرعان ما وثبتت الوية العرب مندفعة الى مواقع الروم ، ودارت المعركة وحمي وطيسها حتى تحولت الى مذبحه سقط فيها تيودورس قائد جيش الروم قتيلا ، ولم يحل صباح يوم ١١ اغسطس حتى كان الجيش العظيم الذي قضى هرقل أكثر من عام في اعداده وحشده قد زال من الوجود .

لم تكن هناك عمليات انسحاب ، بل لم يكن هناك شيء على الاطلاق اذ لم يبق من الروم انسان واحد .

وانتهت بنصر اليرموك عمليات العرب النشطة في سوريا ، اذ عاد ابو عبيدة فاستعاد دمشق وحمص وبعليك ، واستقبلت جيوش العرب في كل مكان استقبال المحررين ، ولم يحل خريف عام ١٤ هـ ٦٣٦ حتى كانت قد اجتاحت كل سوريا حتى جبال طوروس .

● قوانين استراتيجية صدر الاسلام :

وبعد هذا الانجاز المذهل ، حق لاستراتيجية صدر الاسلام أن تشرع قوانينها وترسم قواعدها التي انحصرت في تسع نقاط أساسية هي :

١ - تحديد طبيعة الحرب وفن ادارة الصراع المسلح وقواعد شن العمليات ومداهما الزمني والجغرافي .

٢ - تحديد الاهداف والمهام الاستراتيجية التي تكلف القوات بانجازها لتحديث تغييرا حادا في الموقف العسكري والسياسي السائد بين الخصوم .

٣ - بناء القوات المسلحة ووضع أسلوب تطويرها لتحقيق الاهداف والمهام الاستراتيجية المنشودة .

٤ - التوزيع الجغرافي المناسب لهذه القوات على مختلف جبهات القتال .

٥ - التخطيط الاستراتيجي للاعمال القتالية وأساليب ادارة الصراع المسلح ضد الاعداء .

٦ - اعداد الامة الاسلامية للحرب وتزويدها بالقدرات المادية والطاقات الروحية للصمود والاصرار حتى النصر .

٧ - تدبير احتياجات القوات المسلحة من أدوات الحرب وموادها وذخائرها وتزويد الجيوش بها في مختلف الميادين .

٨ - تنظيم سلسلة القيادة الاستراتيجية من أفضل عناصر المسلمين وتحديد شكل وأسلوب ادارة دفة الحرب .

٩ - دراسة العدو من كافة زوايا السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية .

● كلمة ختام :

وخلاصة الامر أن استراتيجية صدر الاسلام تنفرد بخصائص
وسمات لا ترقى اليها استراتيجية أخرى سابقة أو معاصرة .

فهي واقعية أبدا لا تكلف نفسا مالاتطبيق ، وهي انسانية أبدا
لا تنحدر الى رغبة سفك الدماء وابداء الحرث والنسل ، وهي سلمية أبدا
لا تقاتل للسيطرة والتوسع وتوجيه عبقرية الانسان الخلاقة الى مجرد
الاضرار بالغير كما تفعل الاستراتيجيات الاخرى ، وانما تقاتل للدفاع
عن القيم ولرد العدوان ونشر الامن والسلام ، ولعل في ذلك مغزى أن
يذكر القرآن الكريم السلام في مائة وثلاثة وثلاثين آية من آياته
المحكمات .

اللواء الركن : حسن البدرى

